مجلة جامعة الملك سعود، م٨، الآداب (٢)، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٧٨ (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).

الصعلكة لدى الشنفرى ودلالتها الاجتماعية والنفسية

فضل بن عمار العماري
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٤١٤/١٢/٢٠هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٤١٥/١١/٤هـ)

ملخص البحث. تعددت الدراسات الأدبية والنقدية حول الشنفرى وعلاقته بالصعلكة، وتداخلت الآراء حتى أصبحت الصعلكة ظاهرة اجتماعية لابد أن يضعها الدارس في حسبانه عندما يتناول الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وحتى أصبح الشنفرى رمزًا من رموز الثورة الاجتماعية والتمرد على الأعراف القبلية. وهكذا وضع الشنفرى وعروة بن الورد وتأبط شرًا في منظور واحد تجاوز كل فوارق الحياة والطبقية التي كانت تشكل شخصية كل فرد على حدة.

ولقد وجدت هذه الدراسة أن كل الأحاديث تدور حول نتيجة واحدة، دون أن تلجأ إلى التحليل وسبر القضية من أساسها.

وقد تبين لنا سوء فهم في تفسير معنى الصعلكة عند الصعاليك الفرسان «الفتيان،» فمسمى الصعاليك أطلق عليهم مجازيا، سواء أكان هؤلاء أحرارًا أم عبيدا، لأنهم اعتمدوا على الغزو الخاص في الإغارة والنهب، وهذا الغزو ليس تحت راية القبيلة. أما الصعلكة الأخرى، فهي صعلكة الخلعاء وهم الذين نفاهم المجتمع عقابًا لهم، ومن أشهر هؤلاء الشنفرى.

الصعلكة والمفاهيم المتعددة

فئات الصعاليك

الصعاليك الضعفاء (غير المقتدرين)

أعطى الشعراء أنموذجًا واضحًا لأولئك الذين لا يعملون، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الجهاد في سبيل توفير لقمة العيش، ودعوا هذا الأنموذج بـ«الصعلوك.» وهو مسمى تحقير وعدم أهمية، يستحق العطف والرحمة، ولكنه ليس جديرًا بحمل الصفات التي يسبغها المجتمع على آخرين غيره، ممن يتصف بالمروءة والشهامة والترفع عن إذلال نفسه والحط من شأنها. وهو مع كل ذلك مقبول من المجتمع، غير مغضوب عليه، ولا متبرىء منه. نجد هذا الأنموذج في قول عروة بن الورد:

لَحَى اللهُ صُعْلُوكًا إذَا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصَافِي الْمُشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ... أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا ... يَحُتُّ الحَصَا عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ
قَلِيلُ التِمَاسِ الزَّادِ إلَّا لِنَفْسِهِ ... إذَا هُوَ أمْسَى كَالعَرِيشِ الْمُجَوَّرِ
يُعِينُ نِسَاءَ الحَيِّ مَا يَسْتَعِنَّهُ ... ويُمْسِي طَلِيحًا كَالبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ[1]

فمثل هذا الرجل الذي يندرج تحت مسمى الصعلوك، هو عالة على المجتمع، إنه رجل كسول لا يعمل، ولا يكلف نفسه عناء البحث عن عمل، وإنما يظل طيلة نهاره دون عمل، على حين أن نساء الحي يغدون صباحًا، ويرجعن مساءً في نشاط مستمر، وقد ربطه بالنساء إمعانًا في تحقيره، وتبيانًا لكسله، ثم هو إذا جاع، يجد الغذاء ينتظره، وهو غذاء ليس بالقليل. وتنقل لنا الصورة مجلسًا قبليًّا مفتوحًا، يرده من يشاء من سائلي الغذاء. ثم إن تلك الجزور ليست من فرد واحد، بل: «كل مجزر،» أي أفراد متعددون، وهؤلاء يكونون بمنزلة الصديق: «صديق ميسر،» أي هم يرحبون بمثل هذا الإنسان، على الرغم مما يعرفون عنه من كسل وتراخ، وتنقل لنا صورة هذا الصعلوك، صورة رجل لا يشكو نقصًا

---

(١) عروة بن الورد، *ديوان عروة*، شرح كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٩٥٣م)، ص ص ٤٣ - ٤٤. مصطفى المشاش: مختار، مؤثر للأكل، والمشاش، رأس العظم اللين. المجزر: الموضع الذي تجزر فيه الإبل. القرى: الكرم. طليحا: قد أعيا وحسر عن العمل، كأنه بعير محسر، أي حسير ضعيف. يعين: يساعد.

في زاد أو افتقارًا إلى طعام، فهو «ينام عشاء،» لأنه سيضمن عشاءه مساء اليوم التالي، وما قوله: «كالعريش المجور،» و«كالبعير المحسر،» إلا دليل على أن هذا الصعلوك يجد الطعام الزائد عن حاجته حتى ينعكس ذلك على جسده بدانة وسمنة؛ حتى إن رجلاً سيدًا مثل حاتم الطائي، يستخدم الصورة نفسها التي استخدمها عروة، مما يدل على أن هناك قاسمًا فكريًا مشتركًا بين الاثنين، يقول:

لَحَى اللهُ صُعْلُوكًا مُنَاهُ وَهَمُّهُ ... مِنَ العَيْشِ أَنْ يَلْقَى لَبُوسًا وَمَطْعَمَا
يَرَى الخِمْصَ تَعْذِيبًا وإنْ يَلْقَ شَبْعَةً ... يَبِتْ قَلْبُهُ مِنْ قِلَّةِ الهَمِّ مُبْهَمَا
يَنَامُ الضُّحَى حَتَّى إذَا يَوْمُهُ اسْتَوَى ... تَنَبَّهَ مَثْلُوجَ الفُؤَادِ مُوَرَّمَا
مُقِيمًا مَعَ المُثْرِينَ لَيْسَ بِبَارِحٍ ... إذَا كَانَ جَدْوَى مِنْ طَعَامٍ وَمَجْثَمَا[٢]

وهذه المعاني هي المعاني نفسها التي طرقها عروة، فقول عروة: «كل مجزر» و«أصاب قراها من صديق ميسر،» هما المعنى نفسه في قول حاتم: «مقيما مع المثرين» وقوله: «ليس ببارح.» أما قول عروة: «كالعريش المجور» و«كالبعير المحسر،» فهما المعنى نفسه في قول حاتم: «مورّما،» وإذا تقدم مجمل أبيات عروة، الصعلوك منتقلاً من مأوى إلى آخر في الحي، فإن حاتمًا يقول: «إذا نال جدوى من طعام ومجثما.» ووفق هذه المعاني يقول السليك بن السلكة:

فَلَا تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ ... إذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ[٣]

الصعاليك الفقراء

تدل كل المعطيات التاريخية والاجتماعية في الجزيرة العربية على أن الفقر لم يكن ظاهرة اجتماعية خاصة، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة يعيشها سكان الصحراء، أي أن الفقراء لا يشكلون طبقة محدودة، بل هم أغلب أفراد المجتمع.

وفي أوقات المجاعة، تتخذ الصعلكة مفهومًا عاما، يعني ذلك الفقر الشامل الذي

---

(٢) *ديوان شعر حاتم الطائي*، تحقيق عادل سليمان جمال (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.)، ص ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠. الخمص: الجوع. المبهم: القليل الهم.

(٣) أبو العباس المبرد، *الكامل*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٨١م)، جـ١، ص١٨.

يكتسح فيه الجدب والفقر أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، فيعم الناس جميعا، مما يدفع ببعضهم البعض إلى استخدام القوة لإحراز الطعام والمال لبنيهم وذويهم. لقد قال الأصمعي عن عدد كبير غير السليك والأعلم وابن براقة الهمداني، وحاجز الثمالي: «وبالسراة أكثر من ثلاثين، يعني الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون.»[٤] وقد وصف أبو ذؤيب الهذلي أحد هؤلاء الصعاليك، فقال:

أهم بنيه صيفهم وشتاؤهم ... فقالوا تعدَّ واغز وسط الأراجل

تأبط نعليه وشق فريره ... وقال أليس الناس دون حفائل

ولتأكيد هذا، نأخذ قول الأعلم الهذلي، وهو يتحدث عن أولاده الشعث الصغار، الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه، مع ملاحظة حديث الصعاليك غير الخلعاء عامة عن أُسرهم، فهم في وسط اجتماعي وليسوا خارجين عنه، يقول الأعلم:

وَذَكَرْتُ أَهْلِي بِالعَرَا ... ءِ وحَاجَةِ الشُّعُثِ التَّوَالِبْ

المُصْرِمِينَ مِنَ التِّلَا ... دِ اللَّامِحِينَ إلَى الأقَارِبْ[٥]

فهنا نرى مجموعة تعاني الفاقة والحرمان.

---

(٤) عبدالملك بن قريب الأصمعي، *فحولة الشعراء*، تحقيق ش. توري (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٨٩هـ / ١٩٧١م)، ص١٥؛ وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق وشرح عبدالستار محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٥م)، جـ١، ص١٧٤: «ليس في هذيل إلا شاعر أورام أو شديد العدو.» وإننا لنذهب إلى أن صعلكة تأبط شرًا «أم العيال،» هي صورة من صعلكة أولئك الذين يغزون خارج قبيلتهم، وواضح صحبة الشنفرى له كانت في بداية محاولة الشنفرى أخذ ثأر أبيه، قبل أن تطرده القبيلة نهائيًا، ومن أدلة ذلك قوله هو نفسه عن نفسه:

حمال ألوية شهاد أندية ... قوال محكمة جواب آفاق

وقوله في مخاطبة عاذلته:

إني زعيم لئن لم تتركي عذلي ... أن يسأل الحي عني أهل آفاق

ثابت بن جابر تأبط شرا، *ديوان تأبط شرا وأخباره*، جمع وتحقيق علي ذو الفقار شارك (بيروت: مطبعة المتوسط، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، ص ص ٣٩٨، ٤١١.

(٥) أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، *شرح أشعار الهذليين*، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.)، جـ١، ص٣١٥.

وقد عبر عروة تعبيرًا دقيقًا عن حالات الفقر التي تنتاب رجال الصحراء، فقال :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح[٦]

فهو يكشف عن الدوافع وراء طرح نفسه كل مطرح، إنه المسؤولية تجاه الأسرة التي يعولها .

الصعاليك السادة الرؤساء

الكرم مظهر من مظاهر السيادة. وضح لنا استخدام عروة وحاتم لمفهوم الصعلوك الأول، وهو الرجل الاتكالي المتطفل . ولكن الاثنين استخدما أيضًا صفة الصعلوك لإطلاقه على أمثالهما. وسنرى أن الاثنين يكونان تارة أغنياء وتارة فقراء . ولم تعن الصعلكة عندهما إلا كونها سبيلاً من سبل تحقيق السادة . أما زعامة عروة فملحوظة فيما روي عنه : «كان عروة إذا أصاب الناس شدة، وتركوا في دارهم المريض والكبير، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته، ويكنف عليهم الكنف، ويكسوهم، ومن قوي منهم، إما مريض فيبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته . »[٧]

وهذه من خصائص السيادة والزعامة، فعروة عندما يصف نفسه بالصعلوك، لا يعني به أنه على شاكلة أولئك الفقراء، وإنما يعني به الثراء لتحقيق أهداف اجتماعية نبيلة، طريقها في المجتمع الجاهلي هو القوة . وإن الفارق بين الفقر مطلقا عنده غيره، والفقر النسبي عنده، هو أنه هو الذي يُهلك المال بسرعة، ولهذا ثار النزاع بينه وبين زوجه، فهذا ليس فقرًا .

أما حاتم فمكانته الاجتماعية كسيد ورئيس في القبيلة معروفة، وكان لزامًا عليه، للقيام بمهام السيادة والرئاسة، أن يمارس الغزو.

الغنى مظهر من مظاهر السيادة. إن الغنى قد يجد نفسه ذات يوم فقيرًا، فها هو عروة بن الورد يقول :

دَعِيني لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ وإنْ أمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخِيرُ
وَيُقْصِيهِ النَّدِيُّ وَتَزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

---

(٦) *ديوان عروة*، ص ٢١ .

(٧) *ديوان عروة*، ص ٧ .

وَيُلْقَى ذُو الغِنَى وَلَهُ جَلاَلٌ ... يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ ... ولَكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ(٨)

وبغض النظر عن الشك في صحة هذه الأبيات، شكا يثيره عجز البيت الأخير: «للغنى رب غفور، » فإن الدافع وراءها، هو توفير الغنى، أي توفير فائض عن الحاجة، لأن ميزان الحياة الاقتصادية بالنسبة له غير ثابت، وعلى هذا النحو قال حاتم الطائي:

لَبِسْنَا صُرُوفَ الدَّهْرِ لِينًا وغِلْظَةً ... وَكُلاًّ سَقَانَا بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بَأْوًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... غِنَانَا وَلاَ أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الفَقْرُ(٩)

فالفقر عامل مشترك بين أفراد المجتمع، خاصة في سنوات المجاعة، وهو إلى جانب ذلك ظاهرة مقبولة في المجتمع الجاهلي. ولهذا تتعادل المعاني (لينا: غنى)، (غلظة: فقر)، والبيت الأخير هو أكبر دليل على تأرجح ظاهرتي الغنى/الفقر، بين الناس. وفي قول حاتم الأخير: «فما زادنا بأوا على ذي قرابة/غنانا، » أي توفير المال، إشعار بالالتزام الأخلاقي تجاه الجماعة القبلية.

إن السعي وراء اكتساب المال يحقق لعروة هدفين رئيسين: الأول خاص، يوفر فيه الرخاء لأهله؛ والثاني عام، يستجيب فيه لحاجات الجماعة من حوله، وهو ما حدده حين قال:

سَلِي الطَّارِقَ الْمُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قِدْرِي ومَجْزَرِي
أَيُسْفِرُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ القِرَى ... وأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي(١٠)

ولعل من اللافت للنظر أن الأعلم الذي سُلك في سلك الصعاليك — حسب المفهوم العام — يتحدث عن مركزه الاجتماعي كسيد، مثله مثل عروة وحاتم، فيقول:

فَإِنَّ السَّيِّدَ المَعْلُومَ فِينَا ... يَجُودُ بِمَا يَضَنُّ به البَخِيلُ
وَإِنَّ سِيَادَةَ الأَقْوَامِ فَاعْلَمْ ... لَهَا صُعَدَاءُ مَطْلَعُهَا طَوِيلُ(١١)

---

(٨) *ديوان عروة*، ص ٥٨. الخير: الشرف. حليلته: زوجته.
(٩) *ديوان شعر حاتم*، ص ٢١٤. البأو: الكبر والفخر.
(١٠) *ديوان عروة*، ص ٢١.
(١١) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، جـ١، ص ٣٢١.

ويمكن للدارس أن يجد نماذج كثيرة في الشعر القديم تتحدث عن الفقر إلى جانب الغنى، دون أن يطلق النـاس على هذا أو ذاك لقب الصعلوك. وكثيرا ما تتحدث هذه النـماذج عن بذل المـاء والسخـاء به، تحملا للمسؤولية، فمن هذه الأمثلة المتعددة قول جحدر بن ضبيعة الشاعر البكري الفارس المعروف:

أقـلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ سَاجِبَـةَ الـذَّيْلِ ... فَلاَبُـدَّ أنْ تُسْتَـطْرَدَ الخَيْلُ بالخَيْلِ
إذَا مَا رَأيْتُ الـفَـقْـرَ يَزْدَادُ شِدَّةً ... رَفَضْتُ الهُوَيْنَا وادَّرَعْتُ دُجَى اللَّيْلِ
لأجْمَعَ مَـالاً أوْ تَقُـومَ نَوائِـحٌـا ... عَلَيَّ نِسَـاءُ الحَيِّ يَصْرُخْنَ بالـوَيْلِ
وإنْ أَكُ مِتْـلاَفًـا لِمَا كُنْـتُ جَامِـعًـا ... فَلَمْ أبْنِ بُنْيَانًـا بِمُنْعَـرَجِ السَّيْلِ
وَلـكِـنَّـنِي شَيَّدْتُـهُ فَوْقَ هَضْبَـةٍ ... فَلاَ فَرْعُهُ وَاهٍ وَلاَ الأسُّ ذُو مَيْلِ (١٢)

فهو فقير أحيانًا، وغني أحيانًا أخرى، ولكن هذا الغنى لن يؤدي إلى تكديس الثروة، أو إلى استثمارها، ثم مشاركة الآخرين في بعضها، على غرار المثرين والميسورين السابق ذكرهم، بل إلى تبديدها، (متلافا)، لأنه يريد أن يشيد بنيانا فوق هضبة، كناية عن المجد وتخليد الذكر، مع ملاحظة التركيز على الغنى عند جميع هؤلاء الشعراء، والاستمرار في وسط الجماعة وليس خارجها، وفي بحبوحة من العيش، الأمر الذي يعني أن الصعلكة وسيلة حياة، وليست تفكيرًا منظمًا.

وعلى هذا، فإن ما يمكن استخلاصه، هو أن نيل المال، يتطلب الاتجاه نحو السلب والنهب، ومن هنا وجه عروة إلى زوجه تقريعًا حادًا، حين قال: «دعيني للغنى.»

وهكذا قال الشنفرى، وهو يستعيد ذكرياته الماضية في اللامية التي سنمر عليها بعد قليل:

وأُعْـدِمُ أحْـيَانًـا وأُغْـنَـى وَإنَّـمَـا ... يَنَـالُ الفَتَى ذُو البُعْـدَةِ المُتَبَذِّلِ (١٣)

---

(١٢) أبـو محمد عبدالله بن محمد المرزباني، *حماسة الظرفاء*، تحقيق محمد جبار المعيبد (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٨م)، ص٢٢. منعرج السيل: أي منعطف الوادي يمنة ويسرة.

(١٣) أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، «شرح لامية العرب،» تحقيق محمد خير الحلواني، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، م٣٣ (كانون الثاني، ١٩٨٢م)، جـ١، ص٢٥٢.

أعدم: افتقر. أغنى: استغنى. ذو البعدة: ذو الحزم والرأي. المتبذل: الذي يجود بنفسه ولا يبالي = بشيء.

كما يقول:

فَـلاَ جَـزِعٌ مِـنْ خُلَّـةٍ مُتَـكَـشِّـفٌ وَلاَ مَرِحٌ تَحْتَ الـغِـنَـى أتَخَـيَّلُ(١٤)

وإذن، فقد أصبح الغنى يضاد الصعلكة، أي الفقر. وهذا المعنى واضح في قول الأعشى في سياق مخاطبته شيبان بن شهاب الجحدري:

عَلَى كُلِّ أحْـوَالِ الفَتَى قَدْ شَرِبْتُهَا غَنِيًّا وَصُعْلُوكًـا وَمَـا إنْ أقَـاتُهَـا(١٥)

الغزو خارج حدود القبيلة. يقول عروة:

وَلٰكِنَّ صُعْلُوكًـا صَفِيحَةُ وَجْهِهِ كَضَـوءِ شِهَـابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا عَلَى أعْـدَائِـهِ يَزْجُـرُونَـهُ بِسَـاحَتِهِمْ زَجْـرَ المَنِيحِ المُشَهَّـرِ
إذَا بَعُــدُوا لا يَأمَنُـونَ اقْـتِرَابَـهُ تَشَـوُّفَ أهْـلِ الغَـائِبِ المُتَنَـظَّرِ
فَذَلِــكَ إنْ يَلْقَ المَـنِـيَّةَ يَلْقَهَــا حَمِيدًا وإنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأجْدِرِ(١٦)

ولكن هذا الغـزو، كما هو واضح من مفردات الأبيات، غزو فردي، وليس غزوًا جماعيًا، تشارك فيه القبيلة. ويقول حاتم:

ولِــلَّهِ صُعْــلُوكٌ يُسَــاوِرُ هَمَّهُ وَيَمْضِي عَلَى الأحْدَاثِ وَالدَّهْرِ مُقْدِمَا
فَتى طَلَبَاتٍ لا يَرَى الخَمْصَ تَرْحَةً وَلاَ شَبْعَــةً إنْ نَالَهَــا عَدَّ مَغْنَــمَا
إذَا مَا رَأى يَوْمًـا مَكَـارِمَ أعْـرَضَتْ تَيَمَّــمَ كُبْرَاهُــنَّ ثُمَّــتَ صَمَّــمَا
تَــرَى رُمْحَــهُ وَنَــبْــلَــهُ وَمِجَنَّــهُ وَذَا شُطَبٍ عَضْبِ الضَّرِيبَـةِ مِخْذَمَا
وَأحْـنَـاءَ سَــرْجٍ قَاتِــرٍ ولِجَــامَــهُ عَتَـادَ فَتَى هَيْجَـا وَطِرفًا مُسَوَّمَا(١٧)

= وهذا حسان بن ثابت يجعل الصعلوك الفقير المعدم، فيقول عن نفسه:

لَقَــدْ عَلِمــتُ بأنِّي غَالِــبي خُلقِــي عَلَى السَّـمَاحَـةِ صُعْلُـوكًا وَذَا مَــالِ

ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات (لندن: مطبعة لوزاك، ١٩٧١م)، جـ١، ص ٣١٤.

(١٤) العكـبري، «شرح لامية،» ص ٢٥٣. الخلة: الفقـر: الـذي يكشف فقره للناس. المتخيل: المختال بغناه.

(١٥) *ديوان الأعشى*، تحقيق محمد محمد حسين (القاهرة: المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م)، ص٨٥.

(١٦) *ديوان عروة*، ص ص ٤٤ ـ ٤٥. مطلا: مشرفا. المنيح: قدح مستعار سريع الخروج والفوز، ويستعار فيضرب ثم يرد إلى صاحبه والعارية تسمى المنحة.

(١٧) *ديوان حاتم*، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢. الهم: العــزم. المجن: الـدرع. ذو شطب: السيف. =

فما يقوم به الصعلوك، ذو المسؤولية الجماعية، ليس هو غزو أبناء عشيرته وأثريائها، وإنما هو يمارس الغزو خارج دائرة القبيلة، أي أنه إنما يخرج للحصول على المال من خارج أحياء قومه. وهذا هو ما يتسق مع ما هو معروف من أن أحياء القبيلة الواحدة عادة ما كان يغزو بعضها بعضًا، إلا في حالات استثنائية وتحت ظروف غير طبيعية.

وفي وصف دقيق لهذا المنحى في اتجاه نموذج «الصعلوك،» الثاني، يقول عروة، موضحًا كيف يذهب يمنة ويسرة بحثًا عن المال بعيدًا عن مواطن القبيلة:

سَتُفْـزِعُ بَعْدَ اليَأسِ مَنْ لَا يَخَافُنَـا … كَوَاسِـعُ فِي أُخْـرَى السَّـوَامِ المُنَفَّـرِ
يُطَاعِنُ عَنْهَـا أوَّلَ القَـوْمِ بالقَنَـا … وَبِيضٍ خِفَـافٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُشَهَّـرِ
فَيَوْمًـا عَلَى نَجْـدٍ وغَـارَاتِ أهْلِهَـا … وَيَومًـا بأرْضٍ ذَاتِ شَثٍّ وعَـرْعَـرِ
يُنَاقِلْنَ بالشُّمْطِ الكِرَامِ أولي القُوَى … نِقَابَ الحِجَازِ في السَّرِيحِ المُسَيَّرِ(١٨)

وهذا المعنى نفسه نجده في قوله:

قُلْتُ لِقَـوْمٍ في الكَنِيفِ تَرَوَّحُوا … عَشِـيَّةَ بِتْنَـا عِنْـدَ مَاوَانَ رُزَّحِ
تَنَالُوا الغِنَى أوْ تَبْلُغُوا بِنُفُوسِكُمْ … إلَى مُسْتَرَاحٍ مِنْ حِمَامٍ مُبَرِّحِ(١٩)

إن الفرق بين الفئتين الأوليتين (الفتيان والسادة)، والفئة الثالثة، هو أن الغزو الفردي، وعلى الرغم من أنه مسؤولية شخصية، فإنه قد يؤدي إلى غزو جماعي، أي ثأر وأيام. وما دام مبدأ الثأر قائمًا، فإن أصحاب الفئتين هم جزء مقبول في المجتمع.

ومن الغريب أن يغالط يوسف خليف نفسه عند إشارته للسليك بن السلكة، الذي

= العضب: القاطع. الضريبة: موضع الضرب. المخذم: القاطع. الأحناء: جمع حنو، يعني قربوس الفرس وأخرته. قاتر: الذي يترك على ظهر الدابة آثارا. المسوم: الكريم من الخيل.

(١٨) *ديوان عروة*، ص ص ٤٥ - ٤٦. الكواسع: خيل تطرد إبلا تكسعها في أثرها. السوام: الإبل. شث وعرعر: نوعان من الشجر. يناقلن: المناقلة اتقاء النقل، والنقل حجارة صغار تكون في هذه النقاب. النقاب: الطرق في الجبال والأشراف. الشريح: جمع شريحة، وهي كل قدة قدت سيرا يشد بها النعال. المسير: الذي جعل سيرا.

(١٩) ديوان عروة، ص ٢١. تروحوا: ساروا بالرواح، أي العشي. ماوان: واد. رزح: سقطن من الإعياء، وهو صفة للقوم. المستراح: الاستراحة. الحمام المبرح: الموت الشديد.

كان لا يغير على مضر بدافع العصبية القبلية،[٢٠] كما فعل الشيء نفسه في مقدمة كتابه التي عرض فيها لطبيعة الصعلكة،[٢١] وأتبعه الآخرون دون تحليل وتوقف.

الغزو ظاهرة مشتركة بين الصعاليك الفقراء والصعاليك السادة

أما من حيث علاقة الغزو بالصعلكة، بحيث يتسع مفهوم الصعلكة ليشمل كل من يسلك هذا المسلك، فواضح من قول أبي زبيد، وهو يرثي ابن أخته اللجلاج:

وإذَا القَــوْمُ كَانَ زَادَهُــمُ اللَّحْـ ... ـمُ قَصِيدًا مِنْــهُ وَغَــيْرَ قَصِيدِ
بَدَّلَ الغَـزْوُ أوْجُهَ القَـوْمِ سُـودًا ... وَغَــزَوْا حِينَ أبْــدَأوا غَيْرَ سُودِ
وَسَمَـا بالَمطِـيِّ والذُّبَّــلِ الصُّــ ... ـمُّ لِعَــمْـيَـاءَ فِي مَفَــارِطِ بِيــدِ

ثم يقول:

قَالَ سِيرُوا إنَّ السُّرَى نُهْزَةُ الأكْـ ... ـيَاسِ والغَزْوُ لَيْسَ بِالتَّمْهِيدِ[٢٢]

فهذه صورة من صور الغزو خارج إطار الغزو القبلي المتعارف عليه، والمعروف في حروبهم بـ«الأيام.» ولتقريب هذا الفهم، نستدل أخيرا بقول أعشى باهلة في رثاء أخيه المنتشر:

لا يَأمَنُ النَّـاسُ مُمْسَاهُ وَمُصْبَحَهُ ... فِي كُلِّ فَجٍّ وإنْ لَمْ يَغْزُ يُنْتَظَرُ[٢٣]

فهذه أيضًا صورة طبق الأصل، لما قاله عروة:

---

(٢٠) يوسف خليف، *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م)، ص ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢١) خليف، *الشعراء الصعاليك*، ص ص ١٩ ـ ٥٩. وواضح الخلل المنهجي عند يوسف خليف ومن تابعه، في استبعادهم قصائد طويلة لشعراء صعاليك، أو إقحامهم آخرين في الصعلكة. ومثال ذلك، عبدالحليم حفني، *شعر الصعاليك، وموقفه من صخر الغي* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م)، ص ص ١٢٠ ـ ١٢٥.

(٢٢) الأخفش الأصغر، *كتاب الاختيارين*، تحقيق فخر الدين قباوة (دمشق: مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)، ص ص ٥٣٢، ٥٣٣.

(٢٣) عبدالقادر بن عمر البغدادي، *الخزانة*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م)، جـ١، ص١٩٨.

مطلا على أعدائه يزجرونه. . .

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه. . .

وهذا سهم بن حنظلة الغنوي، أو كعب بن سعد الغنوي، يقول:

فَاعْصِ الـعَـوَاذِلَ وارْمِ الـلَّيْلَ عَنْ عُرُضٍ ... بِـذِي سَبِيبٍ يُقَـاسِي لَيْلَهُ خَبَبَـا

ثم يقول:

حَتَّى تُصَـادِفَ مَـالاً أوْ يُقَـالَ فَتًى ... لاَقَى الَّتِي تُشْعِبُ الفِتْيَانَ فَانْشَعَبَا[٢٤]

وفي شعر الشنفرى نفسه صورة واقعية لهذه الممارسة المشروعة في ذلك المجتمع، إبّان ذلك العصر، وفق تصرفات شخصية مسؤولة عن جناياتها، فهو يتحدث في التائية عن قطع طريق التجارة أو: «على غير مرصد،» حسب تعبير طرفة بن العبد، وهو يصور توغله في مجاهل الصحراء:

وَجَـاشَتْ إلَيْهِ النَّفْسُ خَوْفًا وَخَالَهُ ... مُصَابًا وَلَوْ أمْسَى عَلَى غَيْرِ مَرْصَدِ[٢٥]

يقول الشنفرى، مكررا مفهوم الغزو، الذي قد يجلب الغنى (يغنم):

وَبَـا ضِعَـةِ حُمْـرِ القِسِيِّ بَعَثْتُهَـا ... وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً وَيُشَمَّتِ[٢٦]

وأليس من المعقـول، بعـد هذا، أن ندرج عامر بن الطفيل، ضمن الصعاليك،

---

(٢٤) البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن، *الحماسة البصرية*، تحقيق عادل جمال سليمان (القاهرة: مطابع الأهرام، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)، ص ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢٥) *ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م)، ص٣٠. وفي هذا يقول لبيد بن ربيعة:

وغَـادَرْتُ مَـرْهُـوبًـا كَأنَّ سِباعَـهُ ... لُصُوصٌ تَصَدَّى لِلْكَسُوبِ الْمُحَاوِلِ

شرح *ديوان لبيد بن ربيعة العامري*، تحقيق إحسان عباس (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٦٢م)، ص١٠٨.

ولعل هذا هو ما قصده حسان في هجائه أبا سفيان:

فَأبْـلِغْ أبَـا سُفْيَـانَ عَنِّـي رِسَالَـةً ... فَإنَّـكَ مِـنْ شَـرِّ الرِّجَـالِ الصَّعَالِكِ

ديوان حسان، جـ١، ص٨٥.

(٢٦) أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد التبريزي، شرح *المفضليات*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، جـ١، ص٣٨٧.

تطبيقا لهذه النتيجة؟ أليس هو الفارس الشجاع الفتاك؟ ومع ذلك، فهو يقول عن فرسه الذي عقره بعد يوم الرَّقَم (وقيل إن المقصود رجل قتله):

وَنِعْمَ أخُو الصُّعْلُوكِ أمْسِ تَرَكْتُهُ بِتَضْرُوعَ يَمْرِي بِاليَدَيْنِ وَيَعْسِفُ[٢٧]

ومن أجل أن نتبين حقيقة الصعلكة في المجتمع الجاهلي، حيث يتجه الفرسان والشجعان إلى تحقيق مطالبهم بالهجوم على أصحاب الإبل بعد أن يترصدوها ويتثبتوا من مواقعها، نستشهد بالأبيات التالية التي تصور كيف يتوغل فتيان من قبيلة وابش في الشعاب وبين رؤوس الجبال، فلا يتركون أثرا لهم، ويظلون نهارهم يتحينون الفرصة لاغتنام الإبل، ثم يعدون بها مشمرين أُزُرَهم، تقول الأبيات:

طَرَقَتْهُمْ فِتْيَةٌ مِنْ وَابِشٍ حَازِمُو الأسْوُقِ أفْضَالُ الأزُرْ
لَا يَسُورُ النَّزُّ فِي أقْدَامِهِمْ وَيَقُونَ المَاءَ أطْرَافَ الغُفُرْ
عَذَّبُوا شَمْسَهُمْ يَوْمَهُمُ بِتَبَارِيحَ فَآبَتْ فِي عُذُرْ[٢٨]

وهذا عمرو بن براقة الهمداني، وهو الذي يقول — على غرار بقية الصعاليك:

تَقُولُ سُلَيْمَى لَا تَعَرَّضْ لِتَلْفَةٍ وَلَيْلُكَ مِنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائِمُ[٢٩]

يعود فيركز على الهدف الرئيس من الصعلكة، حسب الفهم الذي نوضحه هنا، ألا وهو الغزو فيقول:

وَكُنْتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ[٣٠]

فالغزو، من أجل النهب والسلب، شريعة المجتمع آنذاك، وليس فيه ما يستحق اللوم أو العتاب، ولهذا تتكرر مفردات الغزو في أشعارهم، كما أن شراح أشعارهم لا يرون في عملهم هذا إلا غزوًا، حتى ليقول الشنفرى نفسه:

---

(٢٧) *ديوان عامر بن الطفيل*، تحقيق ش.ج. لايل (كمبردج: مطبعة جامعة كمبردج، ١٩٦٤م)، ص١٥٧.

(٢٨) الاشنانداني، *معاني الشعر*، تحقيق صلاح الدين المنجد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٤م)، ص ص ٥٢ ـ ٥٣. النز: ما يتحلب من الأرض من الماء.

(٢٩) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، تحقيق عبدالستار فراج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي وشركاه، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م)، ص٨٨.

(٣٠) الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، ص ٨٨.

أُمَشِّي عَلَى أَيْنِ الغَـزَاةِ وَبُعْـدِهَا يُقَـرِّبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدْوَتِي[٣١]

الصعلكة شرف وانتماء

إن هؤلاء الصعاليك الشجعان، سواء أكانوا فتيانًا أم سادة زعماء، إنما أُطلق عليهم هذا المسمى، تمييزًا لهم عن أولئك الشجعان في ساحات الحروب المشهودة، إذ كان في كل قبيلة من أمثالهم وفي كل جماعة، وما صعلكتهم إلا للحصول على المال (الغنى)، لممارسة طموحاتهم أو مهام السيادة والزعامة في عشائرهم. وقد أصبح مسمى الصعلوك مسمى جامعًا لأولئك الفقراء العاجزين عن تحقيق المكانة الاجتماعية بإرادتهم، وهؤلاء الرجال الذين يستعينون بقواهم الخاصة الجسدية والعقلية لتحقيق أدواتهم وفرض احترامهم على الآخرين، وكلا الفريقين هو جزء من المجتمع الذي ينتمي إليه خارج عليه،[٣٢] إلا إذا

(٣١) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص٣٨٦. وانظر تسلقه المراقب: الميمني، *الطرائف الأدبية*، ص٣٧؛ وقطعه الرمال: العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ واقتحامه الوديان: الميمني، *الطرائف الأدبية*، ص٣٨؛ وصدام الصعاليك المسلح بغيرهم: التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣؛ وعنايته بسلاحه: العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦؛ الميمني، *الطرائف الأدبية*، ص٣٨.

(٣٢) لقد عرضت وجهة النظر حول الأوضاع في شبه الجزيرة العربية في مقال: «الصعلكة/الحيافة (الحنثلة)،» *مجلة الحرس الوطني*، ع١٣٧ (١٥ رجب ١٤١٤هـ / يناير ١٩٩٤م)، ص ص ٩٠ ـ ١١٠. وهو يلتقي مع أطروحة هذا البحث التقاء تاما، فقد ربط بين ظاهرة الصعلكة قبل الإسلام، وظاهرة «الحيافة» أو «الحنثلة» قبل قيام الدول الحديثة في الجزيرة العربية، وأثبت توافق ظروفها الطبيعية والاجتماعية، بحيث كان «الحائف» يمارس الاعتناء على أموال الآخرين بالتسلسل والتخفي، فتارة يستخدم «الحائف» عدوا، وتارة يستخدم الخيل أو الإبل. ولم تكن «الحيافة» قاصرة على أفراد من القبيلة أو الجماعة، وإن اشتهرت بها بعض الجماعات، بل كان عقيد القوم، أي رئيسهم في الجاهلية، يقوم بها أيضًا.

وتجدر الإشارة إلى أن ما دعته سوزان ستتكفتش بـ«طقس العبور،» أي أن الصعلكة تشكل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات، هو دعوى ليس لها سند لا من الواقع ولا من الممارسة. وإنما هي افتراض لا يستند على أدنى معرفة بالواقع الاجتماعي للحياة القبلية لا قبل الإسلام، ولا الحياة القبلية البدوية في العصور المتأخرة؛ انظر سوزان ستتكفتش، «القصيدة العربية وطقوس العبور،» *مجلة مجمع اللغة العربية*، دمشق، ع٦ (١٩٨٥م)، ص ص ٥٥ ـ ٨٥.

تجاوز أعراف هذا المجتمع ومواضعه، فحينئذ يصبح مخلوعًا. وعلى هذا، فليس هناك تكتل معين يسعى لأهداف خاصة متميزة، إذ إن الصعلكة بمفهومها الأخير ظاهرة اجتماعية، وهي تعد كسبًا مشروعًا أو شرفًا اجتماعيًّا قبل الإسلام. والمثير فيها هو أن من يمارسها، يمارسها والمجتمع آمن، وعلى مسؤوليته الشخصية، ولا تتحمل قبيلته فيها تبعاتها.

وقد بقي أن نفتح المجال لأي اجتهاد يجعل الصعلكة محركا اقتصاديا أو اجتماعيا أو نفسيا من غير أن يصنفها في شريحة إنسانية متميزة، إذ هي ظاهرة اجتماعية عامة غير مقصورة على عدد معين من الأشخاص أو فئة محدودة من الجماعات؛ فلقد كانت ممارسة اجتماعية مشروعة، يقوم بها من يجد في نفسه القدرة على الإقدام والاقتحام، ويتحمل هو نفسه أوزارها، إنهم الفرسان، أو هم الفتيان،[٣٣] كما هو حال «الفتيان من وابش.»

واختصارًا لكل ما مر، نجد حاتما الطائي، يحدد النوع الأول من أنواع الصعاليك، فيقول مرة أخرى:

وَشَرُّ الصَّعَـالِيك الَّـذِي هَمُّ نَفْسِهِ حَدِيثُ الغَـوَانِي واتِّبَـاعُ المَآرِب[٣٤]

أما النوع الآخر، الجامع بين الصعاليك الفقراء والصعاليك الفرسان، فنجده في قوله، وفيه إشارة إلى النوع الأول كذلك:

وَلَـيْلٍ بَهِيمٍ قَدْ تَسَرْبَـلْتُ هَوْلَـهُ إِذَا اللَّيْلِ بِالنُّكْسِ الضَّعِيفِ تَجَهَّمَا[٣٥]

الصعاليك الخلعاء (البؤساء)

أما الصعلكة ذات المفهوم الواسع الذي يتردد بين الدارسين، فهي صعلكة «الخلعاء،» أو الذين رفضهم المجتمع ولفظهم، والفرق الثابت بين كل أولئك وهؤلاء، هو أن أولئك يعودون إلى أحيائهم، ويعيشون في أوساطهم، أما هؤلاء، فمنبوذون مطاردون؛ الأولون يسعون للمال من أجل المال، ومن أجل أهداف إنسانية نبيلة، في ظروف متفاوتة؛

---

(٣٣) انظر عن الفتوة في الجاهلية. عمر الدسوقي، *الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية العليا*، ط٤ (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦٦م).

(٣٤) *ديوان شعر حاتم*، ص ٢٠٦.

(٣٥) *ديوان شعر حاتم*، ص ٢٤٠.

أما الآخرون، فلا يطلبون إلا العيش والبقاء في ظروف دائمة الشظف، بالغة القسوة والشقاء.

ولعل من المثير للانتباه، أن هذا الاستنتاج ليس خاصًا بالجزيرة العربية وحدها، فالصعلكة ظاهرة معروفة في المجتمعات البشرية، وهي ظاهرة تدعى: الطرد، أو البراوة، أو النبذ ostracism، وهي إحدى وسائل الضبط الاجتماعي، حيث يعزل أولئك الذين اعتادوا الإجرام عن بقية أعضاء المجتمع؛ ولم يول خليف، ولا من جاء بعده، هذه الظاهرة اهتمامًا، فعاملوا الظواهر الاجتماعية معاملة متساوية. ولو التفت هو أو غيره إلى الحياة الاجتماعية في مصر، لوجدوا ظاهرة الصعلكة عند بدو صحراء مصر الغربية، ولو مدوا أبصارهم قليلاً، لوجدوها في جبال الانقسنا في السودان وجيرانهم من المناطق المحيطة في كردفان وغيرها.[٣٦] إن هذا النوع من الصعاليك، لا يفرقون بين القاصي والداني، إذ هم يعيشون «خلعاء،» خارج هؤلاء وأولئك.

النتيجة

وبهذا نخلص إلى أن المجتمع في الصحراء كان مجتمعًا يخضع لضروب التكافل الاجتماعي، والمسؤولية الجماعية، ففي أحياء القبيلة، «الحي،» كما قال عروة، هنالك معدَمون، ليسوا مهيئين نفسيًّا لاستخدام القوة في كسب أرزاقهم، فيلجأون إلى موائد الأغنياء المثرين، الميسوري الحال، والذين يفرض عليهم العرف القبلي الاضطلاع بتلك المسؤولية، حتى إنهم يقدمون الجزور كل عشاء.

وواضح أن ما نرمي إليه هنا هو دحض فكرة الثورة من أجل الثورة؛ لأن كل صور الاعتداء على الآخرين، هي إما صعلكة رئاسة، وإما صعلكة مجاعة، أي صعلكة اضطرار

---

(٣٦) انظر: فاروق إسماعيل، *تأثير الإسلام على الوثنية* (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧م)، ص٢٠٣. وقد أخبرني الشيخ حمد من شيوخ قبيلة آل علي في برج العرب في مصر أن ستة من رجالهم خرجوا عليهم، فخلعوهم، فعاشوا كالكلاب، حسب تعبيره. وكما قال لي أستاذنا عبدالهادي الحاج، إنهم يسمون في منطقة كردفان «الهمباتية» واحدهم «الهمباتي،» وعملهم (الهمبتة).

تحت وطأة الظروف الاقتصادية الطبيعية، ولا دخل للصعلكة في إحداث «ثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء،» كما يذهب إلى ذلك بعض الكتاب المعاصرين من أمثال إحسان سركيس[٣٧] وغيره، أو أن الصعاليك يشكلون على حد تعبير أبوديب: «عصابات ثورية، سلاحها الوحيد قدرتها على الغزو والقتال والهرب من جديد والفر من جديد.»[٣٨] فإذا صح الجزء الثاني من هذه المقولة، مما يكشف عن طبيعة القتال عند من يمارس هذا النوع من الغزو، فإن الجزء الأول منها «عصابات ثورية،» غير صحيح، حسبما يدل على مبدأ «الثورة،» كما هو مفهوم في الأيدلوجيات المعاصرة.

أما الصعاليك الضعفاء فأولئك يطلبون السلامة، وهم أبعد الناس عن استخدام العنف، ثم إنهم أبعد الناس — كما قدمتهم صور حاتم وعروة وغيرهما — عن الثورة على الأغنياء، كما تحاول بعض الدراسات الحديثة إثباته.[٣٩]

الشنفرى

الشنفرى في الرهن والأسر

عند النظر في أخبار الشنفرى نجد القصة التالية: «كان الشنفرى أسيرا في بني سلامان، فبينما كان يرعى بهما لمولاه مع ابنته، إذ أراد أن يقبلها، فصكت وجهه وأخبرت أباها، فخرج ليقتله، فوجده يقول:

أَلاَ هَلْ أَتَى فِتْيَانَ قَوْمِي جَمَاعَةً ... بِمَا لَطَمَتْ كَفُّ الفَتَاةِ هَجِينَهَا

وَلَوْ عَلِمَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ مَنَاسِبِي ... وَنِسْبَتَهَا ظَلَّتْ تَقَاصَرُ دُونَهَا

---

(٣٧) إحسان سركيس، مدخل *إلى الأدب العربي* (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩م)، ص١٩٤؛ وانظر: يوسف خليف، *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م)، ص ص ١٩ ـ ١٤٨؛ محمد مصطفى هدارة، *دراسات ونصوص في الأدب العربي* (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)، ص ص ٤٧ ـ ٦٥.

(٣٨) كمال أبوديب، *الرؤى المقنعة* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م)، ص٥٨٨. ومع كل هذا الاستنتاج وجه أبوديب، ص ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧، نصوصًا عن الصعلكة من بينها أبيات عروة الرائية.

(٣٩) حفني، شعر *الصعاليك*، ص ص ١٧ ـ ٥٣.

وتحاول هذه القصة أن تكشف عن ثأر الشنفرى لأبيه، كما تحاول أن تخلق نوعًا من الإثارة حول علاقته بالمرأة. والمهم فيها هو أنه نشأ صغيرًا في أحضان مجتمع قبلي غير الذي كان ينتمي إليه في الأصل، ولكنه ظل يعيش كواحد منه، مع ما يحمل من شعور بالكبرياء والعظمة. وهو ما تفسره رواية أخرى لنشأته في قبيلة غير قبيلته، تقول: «إن بني شبابة من فهم بن عمرو بن قيس عيلان أسرته، فلم يزل حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج من الأزد رجلاً من بني شبابة، ففدته شبابة بالشنفرى، فكان في سلامان لا تحسبه إلا أحدهم. وذات يوم قال لبنت الرجل الذي كان في حجره، اغسلي رأسي يا أخية، فأنكرت أن يكون أخا ولطمته، فذهب غاضبًا إلى من اشتراه من فهم، وسأله، فأخبره أنه من الأواس.»[٤٠] ثم تورد القصص أبياتا قالها الشنفرى في هذه المناسبة تقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْــرِي والـتَّـلَهُّفُ ضِلَّةٌ بِمَا ضربـت كفُّ الفتــاة هجينهــا
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالــدهــا ظلـت تقــاصـر دونهـا
أنَـا ابْنُ خِيَارَ الحَجْرِ بَيْتًـا وَمَنْصِبًا وأُمِّي ابْنَـةُ الأحْـرَارِ لَوْ تَعْرفِينَهَا[٤١]

وطبيعي ألا تتوافق هذه القصة بروايتها مع ما ذكره في قصيدته التائية الموثقة، التي سنستعرضها بعد حين، والتي نجد فيها الشنفرى في حالة استقرار واستمتاع، كما تقدم صورة للقائه بزوجه — المرأة — رمزًا للحياة الهانئة الوادعة، وليست رمزًا للإذلال والقهر، وهو ما تقدمه القصة السالفة على أنه حرمان وانتقاص.

وكما سوف نرى، فإن التائية تقدمه في هذه المرحلة على أنه رجل حر له مكانته في المجتمع، وهي في الوقت نفسه تقدمه منفصلاً عن تلك الحياة الزوجية، ومندمجًا في حياته الجديدة، حياة الصعاليك.

ولعل هذه القصة برواياتها المختلفة، إنما تحاول أن تجد تفسيرًا معقولاً لأسره في بني سلامان ثم تركه لهم وقتله أحدهم. ففي التائية يقول:

---

(٤٠) أبو الفرج الأصفهاني، *الأغاني*، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م)، جـ٢١، ص٢٠٢.

(٤١) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢١، ص ص ٢٠١ - ٢٠٤، ٢١٥ - ٢١٧. وقد عد الشنقيطي هذه الأبيات من الأبيات المصنوعة الملفقة. انظر: ابن سيده، *المخصص* (بيروت: المكتب التجاري، د.ت.)، جـ٧، ص ص ١٥٢ - ١٥٣.

قَتَـلْنَـا قَتِـيـلاً مُحْرِمـًا بِمُـلَبِّـدٍ جِمَارَ مِنًى وَسْطَ الحَجِيجِ المُصَوِّتِ
جَزَيْنَـا سَلاَمَـانَ بْنَ مُفْرِجَ قَرْضَهَا بِمَـا قَدَّمَـتْ أَيْدِيهِـمُ وَأَزَلَّـتِ

ثم يقول:

شَفَـيْنَـا بِعَبْـدِاللهِ بَعْـضَ غَلِيلِنَـا وَعَوْفٍ لَدَى المَعْدَى أَوَانَ اسْتَهَلَّتِ[٤٢]

وتتضمن هذه الأبيات أن القتل كان بسبب ثأر في بني سلامان. فالمقتول المثؤور منه، هو أحد أفراد بني سلامان الذين قيل إن الشنفرى ينتمي إليهم. فالقتل كما هو واضح، لم يكن بسبب السلب والنهب، كما هو الحال مع الصعاليك، بل بسبب هذا الثأر،[٤٣] فهو لم يشارك في قتل «المحرم،» إلا بعد أن قضى ذلك الشطر من حياته السعيدة ومن هنا قال:

وَهُـنِّىءَ بِي قَوْمٌ ومَـا إنْ هَنَـأْتُهُمْ وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلَيْسُـوا بِمَنْبِتِي

يقول المرزوقي: «قوله: وما إن هنأتهم، أي لم ينتفعوا بي، ولم أحقق رجاءهم في، وإنما قال هذا، لأنه طريد جنايات يجر الجرائر على عشيرته حتى تبرم به من كان ينصره، فعاد خليعًا في رهطه فترأبل، وتوحش، وشارك عوافي السباع والطير، في مشاربها ومساربها، وهذا معنى قوله: وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي،»[٤٤] فـ«قوم» و«هم»: هما تلك الجماعة التي أخذته رهينة أو فدية. وهذا يدل على التقاء الأخبار حول انتقاله إلى محيط غير محيطه. أما «قوم» الأخرى، فهم جماعة الوحوش في الصحراء، وهو ما عناه المرزوقي بقوله: «لأنه طريد جنايات،» فالقتل والصعلكة كانا — على هذا — بعد مضي فترة الهناءة تلك.

---

(٤٢) التبريزي، شرح *المفضليات*، جـ١، ص ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥. المعدى: موضع القتال.

(٤٣) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢١، ص ص ١٩٢ ـ ١٩٥. ورواية *الأغاني*، أن ذلك كان ثأرًا من قتلة أب زوجه؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص٣١٨، أنه ثأر من قاتل أبيه. وفي أبيات أخرى، تنسب إليه، يقول:

أَضَعْتُـمْ أَبِي إِذْ مَـالَ شِـقٌّ وِسَـادِهِ عَلَى جَنَـفٍ قَدْ ضَـاعَ مَنْ لَمْ يُوَسَّـدِ
فَإِنْ تَطْعَنُـوا الشَّيْـخَ الَّذِي لَمْ تُفَوِّقُـوا مَنِـيَّتَـهُ وَغِبْـتُ إِذْ لَـمْ أَشْهَـدِ
فَطَعْنَـةُ خَلْسٍ مِنْكُـمُ قَـدْ تَرَكْتُـهَـا تَمُـجُّ عَلَى أَقْـطَارِهَا سُـمَّ أَسْـوَدِ

عبدالعزيز الميمني، *الطرائف الأدبية* (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م)، ص٣٥. جنف: الجنف في الزور، دخول أحد شقيه، وانهضامه مع اعتدال الآخر.

(٤٤) التبريزي، شرح *المفضليات*، جـ١، ص٣٩٤.

إن تلك القصة السالفة، لم تأت إلا لتعطي الشنفرى بُعدًا بطوليا، عندما حاولت أن تنمي علاقة حب عاطفية من جهة واحدة، وهو أمر وارد في الثقافة الشعبية، وفي ما يتعلق بالروايات القديمة التي تأخذ شكل الحكاية، ولهذا قال ابن دريد (ت ٣٢١هـ) عن قوله في رواية مختلفة لأحد تلك الأبيات:

لَقَـد لَطَمَتْ تلك الفتـاة هجينهـا ألا بَتَرَ الـرَّحْمَـنُ رَبِّي يَمِـينَهَـا

«روي بيت في الجاهلية، ولم ينقله الثقات، هو للشنفرى.»[٤٥] فقول ابن دريد: «لم ينقله الثقات،» يعني خروجه من التوثيق العلمي إلى الأدب الشعبي، ولهذا وجدنا عدم انطباق أحداث القصة ذات البعد الشعبي، مع الأحداث التي تنقلها التائية. ولكن خطوط القصة تلتقي مع خطوط التائية في أن الشنفرى كان في غير قومه، ولهذا قال التبريزي في شرحه عن قوله: هنيء بي قوم: ما انتفعوا بي، وذلك أنه أخذ رهينة ويقال: أخذ في فدية، فبقي في القوم الذين أخذوه، فصارت نصرته لهم.[٤٦] وهو المعنى السابق الذي قال به المرزوقي قبله. ومن هنا، يتضح أنه كان متزوجًا في هؤلاء الذين نشأ بينهم، إما من فهم، وإما من جماعة من الأزد غير بني سلامان، كما روى أبو الفرج.

هذا، ويوضح هذا قول المرزوقي: «إنه طريد جنايات تجر الجرائر على عشيرته، حتى تبرم به من كان ينصره.» وهو مابيَّنه الشنفرى نفسه حين قال:

.... وَلَا الجَـانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ[٤٧]

وعلى هذا، فإن تصعلك الشنفرى لم يكن بدافع المجاعة، ولم يكنَ بدافع الرئاسة والسيادة، وإنما كان بدافع طلب الثأر وارتكاب الجريمة.

---

(٤٥) أبوبكر بن دريد، *الاشتقاق*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٩٥٨م)، ص ص ٥٨ ـ ٥٩. وذهب الشنقيطي، كما مر في الحاشية السابقة، إلى أن الأبيات كلها مصنوعة.

(٤٦) التبريزي، شرح *المفضليات*، جـ١، ص ٣٩٤. وانظر الرواية التي تجعل أمه سبية في هذيل؛ ابن الأنباري، شرح *المفضليات*، تحقيق كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠م)، ص١٩٥.

(٤٧) العكبري، «شرح لامية،» ص ٢٢٠.

الرحيل رمز التحول في حياة الشنفرى من الحياة العادية إلى الصعلكة (الخلع)

لعل تائية الشنفرى مجال خصب يتيح للدارس أن يتلمس المؤثرات التي غيرت نمط حياة الشاعر وحَدَت به إلى تبني الصعلكة في الحياة، لأنها جاءت في مصدر موثق، هو *المفضليات*، فهي تضعنا على الخطوط العامة لحياة الشنفرى، كما يمثلها الرحيل والمرأة.

رحيل زوجته

يقول:

أرَى أُمَّ عَمْـرٍو أجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتِ ... وَمَـا وَدَّعَـتْ جِيرَانَهَا إذْ تَوَلَّـتِ

وَقَـدْ سَبَقَتْنَـا أُمُّ عَمْـرٍو بِأمْـرِهَـا ... وَكَـانَـتْ بِأعْنَـاقِ المَـطِيِّ أظَلَّتِ

بِعَيْنَيَّ مَا أمْسَتْ فَبَـاتَتْ فَأصْبَحَتْ ... فَقَضَّتْ أُمُـورًا فَاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتِ(٤٨)

نرى هنا أن الشنفرى يعكس الافتتاح المتعارف عليه بالغزل، حين ترحل الحبيبة عن الديار بصحبة أهلها وذويها، وهي الصورة نفسها التي نجدها عند كثير من الشعراء الذين عبروا عن حيرتهم ودهشتهم، وهم ينظرون إلى حمول المحبوبة تغادر المكان. وهذه الالتفاتة مهمة جدًّا في تفسير صعلكة الشنفرى، فهي تكشف عن علاقة خاصة بالمرأة، إنها علاقة أصابتها قطيعة أبدية فهو واقف في مكانه يرصد الموقف، ومحبوبته (زوجته) راحلة إلى جهة غير معلومة، وكلا الطرفين محمل بأثقال نفسية، وآلام جمة، جعلت الفراق محتما، ويعبر البيت التالي عن تلك الأحزان تعبيرًا تامًّا، حيث يقول:

فَوَاكَـبِدَا عَلَى أُمَـيْمَـةَ بَعْـدَ مَا ... طَمِعْتُ فَهَبْهَا نِعْمَةَ العَيْشِ زَلَّتِ(٤٩)

فقوله: «فواكبدا» مشحون بالتحسر على هذا الفراق. والأهم من هذا، أن أم عمرو، أو أميمة هذه، هي: «نعمة العيش زلت،» إذن هناك ماضٍ جميل كني عنه بنعمة العيش، وهنا حاضر كئيب، كني عنه بـ«زلت.»

وعلى الرغم من أنه استعمل لفظة «الجارة» في وصف هذه المرأة، في قوله:

فَيَا جَارَتِي وَأنْـتِ غَيْرُ مُلِيمَـةٍ ... إذَا ذُكِـرَتْ وَلاَ بِذَاتِ تَقَـلَّتِ(٥٠)

فإنه يقول بعد ذلك عنها:

---

(٤٨) التبريزي، شرح *المفضليات*، جـ١، ص ص ٣٧٩ - ٣٨٠. أجمعت: عزمت. استقلت: سارت.

(٤٩) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ٣٨٠. هبها: أحبها. زلت: ذهبت.

(٥٠) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ٣٨٠. الام الرجل: إذا أتى بما يلام عليه.

فَبِتْنَا كَأَنَّ البَيْتَ حُجِّرَ فَوْقَنَا بِرَيْحَانَةٍ رِيْحَتْ عِشَاءً وَطُلَّتِ
بِرَيْحَانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرَتْ لَهَا أَرَجٌ مَا حَوْلَهَا غَيْرُ مُسْنِتِ(٥١)

وهو وضع قد ينقلنا إلى القصص الغرامي الذي ألفناه في شعر امرىء القيس، أو شعر الغزل كما يعكسه شعر عدي بن يزيد مثلاً، ولكنه يقول عن هذه المرأة أيضًا:

لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي لَا سَقُوطًا قِنَاعُهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَفُّتِ
تَبِيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدِي غَبُوقَهَا لِجَارَتِهَا إِذَا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ
تُحِلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ
كَأَنَّ لَهَا فِي الأَرْضِ نَسْيًا تَقُصُّهُ عَلَى أَمِّهَا وَإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ
أُمَيْمَةُ لَا يُخْزِي نَثَاهَا حَلِيلَهَا إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ
إِذَا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مَآبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ(٥٢)

فهذه المرأة في غاية العفة والحياء، حتى إنها إذا خرجت، لا تجسر على رفع قناعها عن وجهها، وتعكس حالتها النفسية الحياء الذي يصل حد الخجل بحيث إنها إذا ما سارت، لا تتلفت، وهي الصورة نفسها في قوله: «كأن لها في الأرض» وهو يؤكد عفافها بقوله: «تحل بمنجاة.» وهكذا يرسم الشنفرى صورة لامرأة في منتهى الاستقامة والسلامة من الشبهات. وهذا واضح من عقده مقارنة بينها وبين غيرها من النساء:

(فهي) تُحِلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا (وغيرها) إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ
(وهي) لَا يُخْزِي نَثَاهَا حَلِيلَهَا (وغيرها) إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ(٥٣)

وفي قوله: «لا يخزي نثاها حليلها» تأكيد على أن هذه المرأة ذات رجل تحافظ على حرمته أثناء غيابه. أما في حالة حضوره، أي عودته مساءً:

---

(٥١) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ص ٣٨٥ - ٣٨٦. ريحت: أصابتها الريح، فجاءت بنسيمها. طلت: أصابها الطل، وهو الندى. حلية: اسم موضع في حزن، ونبت الحزن أطيب ريحًا من غيره. نورت: خرج نورها. الأرج: توهج الريح وتفرقها في كل ناحية. مسنت: مجدب.

(٥٢) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ٣٨١. الغبوق: ما يشرب بالعشي من اللبن. تبلت: تنقطع في كلامها، لا تطيله. النسي: الشيء المفقود المنسي. تقصه: تتبعه. أمها: قصدها الذي تريده. تبلت: نسيت.

(٥٣) التبريزي، شرح *المفضليات*، ص ص ٣٨٢ - ٣٨٣. النثا: إخبارك عن الشيء بالحسن أو القبيح.

إِذَا هُـوَ أمْـسَـى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِـهِ مَآبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسَـلْ أيْنَ ظَلَّتِ[٥٤]

فإنها تظهر الفرحة بمقدمه، وتلطف الجو له بعد تعبه وكده، فيجد لديها السرور والترحيب ولا تكون مشغولة عنه بأخريات أو آخرين، وفي هذا الجو يجد راحته النفسية.

وإذا عدنا إلى البيتين الأولين: «فبتنا» و«بريحانة،» نجد أن هذه المرأة تستعد للقاء زوجها أتم الاستعداد، مما يعكس سيطرتها على عقل زوجها بحيث تراءى له — وهو يتذكرها الآن — أن رائحة تنبعث من المكان، وهذه الرائحة تشبه ريحانة نورت وفاح أريجها. مما يعني شدة اعتنائها بجسدها، وهذا يدل على شدة التفاني في الحب والإخلاص للزوج. وقد عكست هذه الذكرى هذه الحالة انشغال الزوج بها.

وعلى الرغم من حياء هذه المرأة وخفرها، فهي قوية الشخصية، واثقة من نفسها لها نفوذها الخاص، لا رقيب على تصرفاتها، ولها حضورها المستمر، كما تعكس ذلك الأفعال المضارعة: فهي التي «تبيت بعيد النوم تهدي عنوقها» وهي التي تحل بمنجاة من اللوم بيتها.» وعلى هذا، فإن قوله: «يا جارتي» إنما يقصد به هنا زوجه،[٥٥] ولذلك قال «فبتنا.»

وإذا كان الشعر الجاهلي لا يقدم لنا صورًا لأولئك النساء اللاتي هن على غرار زوجته، فإن صورة الشنفرى هذه تكاد تكون فريدة، نادرة من فرائد الغزل الجاهلي ونوادره. حتى إنه يصف زوجته هذه بالكرم، فامرأته هي التي تمارسه:

تَبِيتُ بُعَيْدَ النَّـوْمِ تُهْدِي غَبُـوقَهَـا لِجَارَتِـهَـا إذَا الهَـدِيَّـةُ قَلَّـتِ

وهذا ما وضحه التبريزي في شرحه: «أي في الجدب وبرد الشتاء، حيث تذهب الإبل، وينفد الزاد.»[٥٦] وهذا يعني أنها امرأة غنية يتوافر لديها عصب الحياة في ذلك الزمان وهو «الإبل» حيث تفتقد الإبل عند غيرها.

ولعل من الطريف أن امرأة عروة، تمارس أيضًا الكرم الذي يهيء لها زوجها وسائله، فعروة يقول مخاطبًا زوجته:

---

(٥٤) التبريزي، *شرح المفضليات*، ص ٣٨٤. آب: رجع.

(٥٥) محمد حسن أبوناجي، *الشنفرى شاعر الصحراء العربي*، ط٢ (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ص١٥٤. ولكن ناجي يطلق على حديثه عن زوجته: «وصف المرأة،» أو «الغزل العفيف،» ص ص ٦٤ ـ ٦٨.

(٥٦) التبريزي، *شرح المفضليات*، ص ٣٨٢.

أَبَى الخَفْضَ مَنْ يَغْشَاكِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ   ومِنْ كُلِّ سَـوْدَاءِ المَعَـاصِـمِ تَعْتَـرِي(٥٧)

ولعل هذه الإشارة دلالة قاطعة على السيادة والمكانة، التي يحتلها عروة وعلى مكانة المرأة الزوجة في مجتمعها.

ومن ثم نعلم أن الشنفرى كان ذا زوجة، ذات نعمة وجمال، مرفهة ليست من عامة الناس بل من علية القوم «تحل بمنجاة من اللؤم بيتها.» وأنه كان يعيش حياة أمن واستقرار، يعمل نهارًا، مثلما يعمل أي عضو في الحي (القبيلة)، ثم يقبل مساء، هادىء البال، مرتاح الخاطر، تشاطره زوجه همومه وأفراحه، فيقبل عليها وتقبل عليه. ولكن فجأة حدث ما قلب تلك الأوضاع، فإذا بالزوج ـ الحبيبة، تغادره إلى غير عودة.

وفي قصيدة أخرى نجد هذا الفراق نفسه مع «أم قيس،» يقول:

نَأَتْ أُمُّ قَيْسٍ المَـرْبَعَـيْنِ كِلَيْهِـمَا   وَتَحْـذَرُ أَنْ يَنْـأَى بِهَا المُتَصَيَّفُ(٥٨)

وعلى ضوء ما تقدم، فإن أم قيس، هي أميمة وأم عمرو، وهي المرأة البدوية ذات الحل والمقام في أهلها وبين عشيرتها، فهي تغادر «المربعين،» أي مكانين وقت الربيع، لتحل في مكان آخر وقت الصيف «المتصيف.»

وهذا الرحيل في التائية، والنأي في الفائية، نجده في اللامية، التي يفتتحها بقوله:

أَقِـيمُـوا بَنِي أُمِّـي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ   فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُـمْ سَأَرْحَـلُ
فَقَـدْ حُمَّتِ الحَـاجَاتُ واللَّيْلُ مُقْمِرٌ   وَشُـدَّتْ بِطَيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُـلُ(٥٩)

الشنفرى صعلوكًا (خليعًا)

وفي كل الأوضاع أصبح الشاعر وحده بعد أن غادره من هم أقرب الناس إليه، وهو زوجه (أم قيس، أميمة، أم عمرو)، وبنو أمه. وإذا كانت التائية تفصح عن الجماعة الجديدة وعن بعض حالاتهم، فإن اللامية تكشف عنه وهو يعيش أوضاعهم وحياتهم. وإذا

---

(٥٧) *ديوان عروة*، ص ٤٣. الخفض: لين العيش. سوداء المعاصم: يريد أجهدها الجدب. تهتري: ترتاد.

(٥٨) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ص ٣٨.

(٥٩) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢١٧ ـ ٢١٨. حمت: قدرت. الطية: الحاجة.

كان في التائية قد قال: «وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي،» الذي قال عنه المرزوقي: «لأنه طريد جنايات،» فإنه في اللامية يقول بصراحة:

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيرَتُهُ لِأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ(٦٠)

ولقد أصبح الشنفرى مطاردًا بعد ارتكابه جريمة القتل، في شهر حرام، وفي مكان حرام، وأمام الملأ من الناس: «قتلنا قتيلا،» وبعد أن تمادى في ذلك حتى تخلى عنه من كان ينصره، ويقف إلى جانبه، فرحل الجميع عنه. وهنا تمثل الرحلة مفهوم الخلع نفسه، إذا لم ترحل المرأة وحدها، أو الأهل وحدهم، بل رحل معهم الماضي بكل ما يمثله من استقرار وحب.

أما الحاضر، فإنه حاضر موحش بجميع ما يقدمه من صور، سواء في التائية، وهو يقف إلى جانب الصعاليك الآخرين مع تأبط شرًا: «وأم عيال،» أو في اللامية، وهو يصارع الموت، تارة مع الذئاب، وتارة مع القطا، وتارة مع الوعول، ويظل متنقلاً من مكان إلى آخر حتى يضطر إلى أن يلتهم التراب لشدة جوعه.(٦١) وهو في جميع حالاته، بعيد معزول منبوذ من الجماعة، أكبر همه أن يبقى على قيد الحياة، شقي في جوف الصحراء، يعيش الوحشة والعزلة والانفراد، لا وطن ولا أهل له. وعلى حين تعبر صور الذئاب في عويلها، والقطا بتجمعه، والوعول مع إناثها، عن ابتهاج ونشوة، فإن هذه الصور تمثل هزيمة ذاتية، وتحطما معنويا، لأنه وحيد في كل هذه الصور لا أنيس له ولا رفيق.(٦٢)

ومن ثم، فإن علينا أن نضع حدًا فاصلاً بين المرحلة الأولى من حياة الشنفرى، والتي تمثلت في ما قبل القتل، وهو مستقر مع زوجه، والمرحلة الثانية التي انضم فيها، مؤقتًا، إلى جماعة الصعاليك (الغزاة ـ الفرسان)، ثم المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي لم يعد انتماؤه فيها إلى الجماعة الإنسانية الجديدة يحميه من الانتقام، فكان أن انسحب من الأجواء جميعها، وعاش في غربته.

---

(٦٠) العكبري، «شرح لامية،» ص ٢٢٥.

(٦١) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٥٩.

(٦٢) انظر مواقف أخرى مناقضة لما نذهب إليه: يوسف اليوسف، *مقالات في الشعر الجاهلي*، ط٢ (بيروت: دار الحقائق، ١٩٨٠م)، ص ص ٢٢٧ ـ ٢٣٥؛ سعود الرحيلي، *لامية العرب، رحلة التوحش* (الرياض: جامعة الملك سعود، مركز البحوث، ع٢٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م).

إن التائية، في الحقيقة، تحكي عن هذه المراحل الثلاث كلها:

المرحلة الأولى: مع أهله: «هنىء بي قوم.»

المرحلة الثانية: مع تأبط شرًا (أم عيال)، الذي انضم إليه حتى يدرك ثأره: «قتلنا قتيلا.»

المـرحلة الثـالثة: مرحلة الافتراق عن الجماعة الأخيرة: «وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي،» أي جماعة الوحوش.

الضياع النهائي والغربة الأبدية في اللامية: مشاهد من حياة صعلكة الشنفرى

مشهد الذئب

لقد بلغ الشنفرى في لاميته قمة رفضه لحياة الصعلكة، أو حياة العزلة، فعلى حين كان يعود إلى امرأته هادىء البال مسرورًا، أصبح الآن يعود فارًا متنقلاً حتى يصل إلى حيث الوعول. ومجيئه إليها إنما يحمل معه الخوف والتخفي حتى يستقر فيما بينها. فكما جعل نفسه كالذئب، ثم إن الذئاب اجتمعت وتفرقت بسرور، وكما قارن نفسه بالقطا، وهو يغدو إلى الماء، ثم إن القطا شربت بكل رغبة، فإن الوعول هنا أيضا تجتمع فوق قمة الجبل، وهو مكانها الطبيعي — كما كانت المرقبة مكانًا طبيعيًّا لتجمع الذئاب — ومورد الماء مساء «الآصـال،» وهـو وقت تجمعها الطبيعي، ولكنها عندما يطلع النهار ستغادر هذا المكان وستفـترق مرة ثانية. وبـذلك يتأكد لنا أن لجوء الشنفرى إلى الأراوى لم يكن تعويضًا أو تكيفًا، وإنما اضطرار يعمق دلالات الحنين إلى العودة إلى المجتمع والانتماء إليه، أي إنه إنما يرفض هذا الوضع الآخر المفروض عليه فرضًا.

إن معاناة الشنفرى ورفضه لحياة الصعلكة، ظاهران في كل أجواء شعره، فهو في اللامية التي كثر الحديث عنها يقول:

وَإِلْـفُ هُمُومٍ مَا تَـزَالُ تَعُـودُهُ ... عِيَادَ الحَمِيِّ الـرِّبْـعِ أَوْ هِيَ أَثْقَـلُ
إِذَا وَرِدَتْ أَصْـدَرْتُهَـا ثُمَّ إِنَّهَا ... تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحَيْتُ وَمِنْ عَلُ[٦٣]

(٦٣) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠. الحمى: المحموم. الربع: الحمى التي تصيب المريض يوما وتدعه يومين، ثم تأتيه في اليوم الرابع، وهو فاعل اسم المصدر عيَاد. تثوب: ترجع. تحيت: تصغير تحت.

فهذا الوصف القاسي المؤلم لحياته، وهو يحيا الصعلكة، لا يمكن أن يعني أنه متكيف معها، بل هو يعيش صراعا معها، وذلك مقابل المرحلة الأولى من حياته، أي مقابل النوم والهدوء والسلامة. وهذا بين بكل وضوح عندما نقارن قيام زوجه على إسعاده والاعتناء به في السابق، ومظهره الحالي، وهو وحيد شريد طريد، حتى إن الدهن لم يمس شعره، فصار أشعث يحيا القمل فيه:

وَضَافٍ إذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ ... لَبَائِدَ عَنْ أعْطَافِهِ مَا تُرَجَّلُ
بَعِيْد بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ ... لَهُ عَبَسٌ عَافٍ مِنَ الغِسْلِ مُحْوِلُ(٦٤)

وإذا كانت قصائده، إنما تعبر عن حالة الضياع، والغربة بكل معانيها، وهما متضمنتان في كل مفردة من مفرداته، وفي كل صورة من صوره، فإنه في مقدمة لاميته يقول:

أقِيمُوا بَني أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فَإِنِّي إلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ واللَّيْلُ مُقْمِرٌ ... وَشُدَّتْ لِطَيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وفِي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى ... وفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا بالأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِىءٍ ... سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهْوَ يَعْقِلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ ... لَدَيْهِمْ وَلَا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

ثم قوله:

وإنِّي كَفَانِي فَقْدُ مَنْ لَيْسَ جَازِيًا ... بِحُسْنَى وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ(٦٥)

لقد تساوت كلمة: «قوم،» مع «بني أمي،» مما يعني أن من كان يعيش معهم كانوا يبادلونه الحب. ولكن التعبير ببني أمي أقوى من التعبير بكلمة قوم، لما تحمله اللفظة من معنى الأمومة، أي الحب، وهنا نعود إلى الصورة السابقة للرحيل في التائية، حيث واجهناه وحيدًا. إنه عندما يقول: «فقد حمت الحاجات والليل مقمر،» إنما يعني أن القافلة، التي

---

(٦٤) العكبري، «شرح لامية،» ص ٢٦١. الضافي: السابغ، أي شعره. اللبائد: جمع لبيدة، وهي ما تلبد من شعره. ترجل: تسرح وتدهن. العبس: ما تعلق بأذيال الشاء من أبوالها وأبعارها. عاف: كثير، أي شعره أيضًا. الغسل: ما يغسل به الرأس. محول: أتى عليه حول.

(٦٥) العكبري، «شرح لامية...» ص ص ٢١٧ ـ ٢٢٥.

تهيأت للرحيل هناك ، إنما تتهيأ للرحيل هنا ، والقوافل إنما تسير ليلاً لتجنب حرارة الشمس «مقمر ، » ويكشف قوله : «وفي الأرض منأى ، » أن بني أمه ، وهم أهله ،(٦٦) قد تخلوا عنه . وينقلنا هذا البيت إلى ترك زوجه له ، بعد أن سفك الدماء ، وأصبح «طريد جنايات ، » إنه يعتزل الناس خشية «الأذى . » كما يعتزلهم لأنه أيضًا أدرك أنهم لم يعودوا يقربونه كالسابق : «خاف القلى ، » ويجتمع كل ذلك في قوله : «سرى راغبًا أو راهبًا ، » فهو خرج إلى الصحراء ، لأنه لم يعد لديه مفر من ذلك ، فهو مصحوب دومًا بالخوف والتوجس ، كما لاحظنا : «راهبًا . »

وعلى الرغم من زعمه ، بأن «الذئب» أو «النمر ، » والضبع هي أصحابه ، في قوله :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ(٦٧)

فإن جعل هؤلاء هم الأهل ، إنما كان تبريرًا ذاتيًا للتخفيف من ذلك الألم الذي صاحبه . ويبين قوله : «ولا الجاني بماجر يخذل ، » مع استخدام ضمير الجماعة البشرية للحيوانات : «لديهم ، » أن سبب تصعلكه ، كما أشرنا ، يعود إلى ارتكابه جرائم القتل وتخلي أهله عنه . ونحن في الواقع لم نشاهد لدى هذه الحيوانات النصرة . ولعلنا نلاحظ أنه ، على الرغم من نقله صورة بالغة الدقة لحياة الذئاب ، فإنه لم يعقد صداقة معها ، وإنما ظل بعيدًا عنها يراقبها متمزق الذات بين الخوف منها والحنين إلى حياته الأولى . ولهذا ، فإن استعماله لـ«أهلون» لا يعني إلا الهروب من الواقع وعدم تحقيق الرغبات ، وإن لوحة الذئاب التي قدمها الشنفرى ، لأصدق دليل على ذلك . فقد ظلت الذئاب تمارس العويل وهي في منأى عنه ، ثم افترقت دونه ، ويصور هذا الحدث أبلغ معاني التأثير في نفسية الشنفرى . إن هذا التصوير ، وتلك المقارنة مع الذئاب ، لا تختلف في مدلولها عن تصويره وهو يجوع ويعطش ، فكل ذلك تعبير عن التألم لهذا الواقع الذي يعيشه الآن ، فعلى حين تقر الدراسات العلمية

(٦٦) لاحظ أن التعبير بـ «بني أمي ، » قد يرجح رواية أسره في بني فهم أخواله ، ثم إنه كان يغير مع تأبط شرا الفهمي . انظر : الأصفهاني ، *الأغاني* ، جـ١ ، ص ص ١٤٤ ـ ١٩٦ .

(٦٧) العكبري ، «شرح لامية ، » ص ٢١٩ . ولعلنا بعد ذلك نرفض تفسير الرحيلي «عرفاء ، » «لامية العرب ، » ص ٤٣ ، على أن مضمونه الدلالي يشير إلى عنصر الأنوثة . وهو الاتجاه نفسه عنده في تفسيره وصف القوس بالصفراء على أن هذه القوس التي يحتضنها هي رفيقته التي تحتل في قصيدته مكان الصاحبة في القصيدة النمطية ، ص ص ٤٣ ـ ٤٤ .

أن الذئاب بممارستها للعويل، إنما تمثل أجمل لحظات الغناء والسعادة عندها. لا نجد عند الشنفرى إلا إسقاطًا لذاته على هذا الجانب الجميل من لحظات حياة الذئاب. فإذا بهذا العـويل أو الغناء، أو اللقاء: مناحة تتقابل فيها الحزانى من أيامى وثكالى، وهو تعميق لمفهوم الفقد الذي يحياه الشنفرى ذاته، يقول: (٦٨)

وَأَغْدُو عَلَى القُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا ... أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفَ أَطْحَلُ
غَدَا طَاوِيًا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيًا ... يَخُوتُ بأَذْنَابِ الشِّعَابِ وَيَعْسِلُ
فَلَمَّا لَوَاهُ القُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ ... دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحَّلُ
مُهَلَّلَةٌ شِيبُ الوُجُوهِ كَأَنَّهَا ... قِدَاحٌ بأَيْدِي يَاسِرٍ تَتَقَلْقَلُ
أَوِ الخَشْرَمُ المَبْعُوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ ... مَحَابِيضُ أَرْدَاهُنَّ سَامٍ مُعَسِّلُ
مُهَرَّتَةٌ فُوهٌ كَأَنَّ شُدُوقَهَا ... شُقُوقُ العِصِيِّ كَالِحَاتٌ وَبُسَّلُ
فَضَجَّ وَضَجَّتْ بالبَرَاحِ كَأَنَّهَا ... وَإِيَّاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلْيَاءَ ثُكَّلُ
وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَاتَّسَى وَاتَّسَتْ بِهِ ... مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وَعَزَّتْهُ مُرْمِلُ
شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وارْعَوَتْ ... وَلَلصَّبْرُ إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ
وفــاء وفــاءت بادرات وكــلها ... على نكـظ مما يكـاتـم مجمـل

لقد كانت الحياة الأولى هي المؤثرة في واقع الأمر على نفسية الشنفرى، ولهذا قال: «وإني كفاني فقد،» إذ يحمل هذا البيت تعبيرًا شديدًا عن فداحة تلك الخسارة التي خسرها

(٦٨) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٣٦ ـ ٢٤٢. الأزل: القليل لحم الوركين. التنائف: جمع تنوفة، وهي الأرض. أطحل: في لونه كدرة. الطاوي: الجائع. هافيا: يذهب يمينا وشمالا من شدة الجوع. يخوت: يختطف. الشعاب: المسائل الصغار في الوادي. أذنابها: أواخرها. يعسل: يمر مرورًا سهلاً. لواه: دفعه. أمه: قصده. نحل: ضوامر. مهلهلة: رقيقة اللحم. شيب: جمع شيباء وأشيب. ياسر: الذي يضرب بالقداح. الخشرم: رئيس النحل. حثحث: حرك وأزعج. الدبر: النحل. المحابيض: جمع محبض، وهو العود مع مشتار العسل. السامي: الذي يسمو لطلب العسـل. مهـرته: مشقوقة الفم. البسل: الكريهة المرأى، ويقال للشجاع باسل أيضًا. البراح: الأرض الواسعة. نوح: جمع نائح ونائحة. العلياء: البقعة المشرفة. ثكل: جمع ثاكلة، وهي التي فقدت ابنها. اتسى: تعزى. اتست به: جعلته أسوة وقدوة. مراميل: الذين لا أقوات لهم. فاء: رجع. البادرات: المسرعات. النكظ: شدة الجوع. يكاتم: يكتم ما عنده. المجمل: الذي يعامل صاحبه بالجميل.

سابقًا. فكلمة «فَقْد» كلمة قوية إلى حد بعيد تعادل الموت، مما يحز في النفس ويؤثر فيها. ويدل على تحطم ذاتي، فالفقد عملية مروعة. ولا يخرج هذا البيت عن الإشارة إلى تلك الزوج التي انصرفت عنه كلية، بعد أن قررت القبيلة خلعه: «ليس جازيا/بحسنى ولا في قربة متعلل.» أما قوله: «وإني كفاني،» ثم تعداده، في البيت الذي يليه ما يكفيه، أي «ثلاثة أصحاب،» فإن هذه الأشياء نفسها، لأكبر دليل على مبلغ خسارته، إذ هي شيء محدود جدًّا مقابل ذلك الشيء الكثير عند أهله هناك.

ومقارنة يسيرة بأبيات تأبط شرًا في خطاب الذئب تبين لنا البون الشاسع بينهما، كما تبين طريقة كل وصف على حدة. فأبيات تأبط شرًا تقدم صورة دقيقة عن علاقة الذئب بالإنسان في الصحراء، وهي علاقة مهما يبلغ وجه الشبه بينهما، تظل منفصلة وغير متطابقة من الناحية الشخصية، وإن تطابقت مع الواقع الخارجي. يقول فيها:

وَوَادٍ كَجَوفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِهِ الذِّئْبُ يَعْوي كَالخَلِيعِ المُعَيَّلِ
تَعَدَّى بِزَبْزاةٍ تَعُجُّ مِنَ القَوَا ... وَمَنْ يَكُ يَبْغِي طُرْقَةَ اللَّيْلِ يُرْمِلِ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى إنَّ ثَابِتًا ... قَلِيلُ الغِنَى إنْ كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلَ
كِلاَنَا إذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ ... وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يَهْزَلِ
كِلاَنَا طَوَى كَشْحًا عَنِ الحَيِّ بَعْدَمَا ... دَخَلْنَا عَلَى كَلاَّبِهِمْ كُلَّ مَدْخَلِ
طَرَحْتُ لَهُ نَعْلاً مِنَ السِّبْتِ طَلَّةٍ ... خِلاَفَ نَدىً مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مُخْضِلِ
فَوَلَّى بِهَا جَذْلاَنَ يَنْفُضُ رَأسَهُ ... كَصَاحِبِ غُنْمٍ ظَافِرٍ بِالتَّمَوُّلِ[٦٩]

---

(٦٩) *ديوان تأبط شرا وأخباره*، تحقيق علي ذو الفقار شاكر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٥. الخليع: المخلوع. المعيل: ذو العيال. زيزاة: الغليظة من الأرض. تعج: تصوت. القوا: الخلاء القفر من الأرض. طرقة: ظلمة. يرمل: يقل زاده وينفد. الكلاب: صاحب الكلاب. السبت: الجلد المدبوغ. الطلة: الشربة. خلاف ندى: بعد نزول الندى في آخر الليل. مخضل: ندى. ويؤكد هذا قول امرىء القيس في الكشف عن هذا الصعلوك الخليع:

لقيت عليه الذئب يعوي كأنه ... خليع خلا من كل مال ومن أهل

ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص٣٧.

وتحمل الأبيات صورة مختصرة للصعلوك: «وواد كجوف العير قفر قطعته،» الفقر وضنك الحياة؛ «قليل الغنى،» «كلانا إذا ما نال شيئا أضاعه،» والتسلل إلى الأحياء: «كلانا طوى كشحًا عن الحي بعدما،» وعدم الاتصال المباشر بالذئب: «طرحت له نعلا.» وتلتقي هنا جميع الصور التي دارت حول لقاء الذئب، سواء أكانت جاهلية أم إسلامية (صورة لقاء الفرزدق المشهورة بالذئب، مثلًا)، مع هذا المنظر المشاهد ههنا. لقد ظل تأبط شرًا يتعامل مع الذئب تعاملاً بعيدًا، أوجد فيه وجه شبه كبير بين الذئب والإنسان في كون الإنسان يحيا حياة شبيهة بحياة الذئب، أي يجمع بينهما حس الافتراس، وهو الغزو فيما يخص تأبط شرًا، فليس في الأبيات انسحابًا من مسرح الحياة وعزلة — كما هو في أبيات الشنفرى — وإنما هناك إقدام واقتحام. مع ملاحظة الإشارة إلى الصعلوك المخلوع (كالخليع المعيل)، وهو لا يعني به نفسه، وإنما يعني به المخلوع حقيقة، مع أن له عيالًا، فخلعه قومه لجناياته.

مشهد القطا

وهكذا تتابع الدلالات لتعود إلى مصدر واحد، وهو الرفض والرغبة في العودة إلى المنظومة البشرية، بدلاً من هذه الفوضى، وهذا التشرد والهلاك. وما صورة القطا إلا إحدى هذه الدلالات، فعلى حين كان يعود إلى أهله هادىء البال مسرورًا، أصبح الآن فارًا متنقلاً في صراع مع الطبيعة والذات، فإذا كان قوله:

كأن وغاها حجرتيه وحوله   أضاميم من سفر القبائل نزل

وقوله:

ركب من أحاضة نزل

يعبر كما لاحظ اليوسف، عن الرغبة في الانتماء، [٧٠] فإن قوله:

وتشرب أساري القطا ....

هممت وهمت ....

فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهْيَ تَكْبُو لِعَقْرِهِ   يُبَاشِرُهُ مِنْهَا ذُقُونٌ وَحَوْصَلُ

---

(٧٠) اليوسف، *مقالات*، ص ٢٣٠.

كأن وغاها :

تَوَافَـيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَـا كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الأَصَـارِيمِ مَنْهَلُ

فغبت غشـاشـا ثم مرت كأنها مع الصبح .... (٧١)

إنما يعبر عن الوحدة وتعميق الشعور بالحزن والأسى، فقد شاهدنا الذئاب فرحة مبتهجة، وهي تمارس العويل، ونحن نرى القطا هنا فرحا مبتهجا أيضا، فقوله: «تكبو لعقره،» تصوير لذلك الفرح بالعثور على الماء، حتى إن الألفاظ نفسها دقيقة كل الدقة في نقل تلك المعاني: فهي قد غاصت إلى عمق الماء من شدة تلهفها عليه، وهي أيضا قد التصقت به التصاقًا شديدًا فغمست رؤوسها فيه: «يباشره منها ذقون، حوصل.» وتكمل بقية الألفاظ ذلك الفرح الشديد. فهي تصدر أصواتًا للتعبير عن ذلك الابتهاج، وهي تأتي من مسافات بعيدة متباينة، فتحقق باجتماعهن هنا الفرحة الكاملة. وإن التأمل في التقاء القطاء وإصدارهن تلك الأصوات، ليعيدنا إلى التقاء الذئاب وعويلها.

وعلى العكس مما يظن من أن الشاعر يمارس «فوقيته» على الجماعة عندما استخدم العبارة «فوليت عنها،» فهو إنما يمارس «انهزامية.»(٧٢) إن هذه الصور محلها إنما تدل على انهزام ذاتي، وتحطم معنوي، لأن القطا ما زال يمارس الفرح والنشوة بلقياه الماء، أما هو فهائم وحيد. وبعد ذلك سيعلو القطا ويعود إلى مأمنه، أما هو فسيظل بلا مأوى.

وأخيرًا، فإن صورة الذئاب وصورة القطا، تنقلان واقعًا طبيعيًّا لهما في هذه الصحراء، إضافة إلى أنها جميعًا تعيش في الصحراء، وهي متكيفة مع الطبيعة الصحراوية القاسية، أما هو فلا، مما يعمق فكرة الرفض لديه.

---

(٧١) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٤١ - ٢٤٩. تكبو: تتساقط. العقر: مقام الساقي من الحوض لعقره، أي إلى عقره. حوصل: جمع حوصلة، وهي الحوصلة للطائر. الوغى: الأصوات والجلبة. حجرتاه: جانباه. أضاميم: قوم ينضم بعضهم إلى بعض في السفر. السفر: جماعة المسافرين. شتى: الطرق المختلفة. الأذواد: جمع ذود، وهو العدد المحدود من الإبل، قد يصل إلى الثلاثين. الأصاريم: جمع صرمة، وهي القطعة من الإبل. المنهل: الماء. غبت: الغب، الشرب على عجل. الغشاش: القليل.

(٧٢) اليوسف، *مقالات*، ص ٢٢٩. على الرغم من أنه قال أيضًا بالفوقية، وتابعه في كل ذلك الرحيلي، *لامية العرب*، ص٥٧.

مشهد الوعول

ولا تختلف بعد ذلك صورة الوعول عن الصورتين السابقتين، فقوله:

قَرُودُ الأَرَاوَى الصُّحْمُ حَوْلِي كَأنَّهَا عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلاَدُ المُذَيَّلُ
وَيَرْكُدْنَ بالآصَالِ حَوْلِيَ كَأنَّني مِنَ العُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِي الكَيْحَ أعْقَلُ[٧٣]

إنما يعبر عن حنين داخلي مستمر إلى العودة إلى المجتمع، الذي تمثل لدينا هنا في تشبيه الأراوى بالعذارى. ولكن الانفصال عن عالم الطبيعة الحية مستمر، فقوله: «كأنني من العصم» إنما يريد به أن يقول إنني أظل إنسانًا لا أنتمي إلى عالم الحيوان، مهما بلغت شدة اقتراب الحيوان مني، ولهذا فليس صحيحًا أن الانتماء إلى مجتمع إنساني لم يتحقق، فعوض عنه بالانتماء إلى مجتمع الأراوى،[٧٤] أو «أن الصعلوك قد وصل في محاولة التكيف مع حياة التوحش إلى درجة الارتواء العاطفي. وهذا يمثل قمة التكيف مع الطبيعة المتوحشة وشخوصها.»[٧٥]

فقد بلغ الشنفرى بهذه الصورة قمة رفضه لحياة الصعلكة، أو حياة العزلة، فعلى حين كان يعود إلى امرأته هادىء البال مسرورًا، أصبح الآن يعود فارًّا متنقلاً حتى يصل إلى حيث هذه الوعول. ومجيئه إليها إنما يحمل معه الخوف والتخفي حتى يستتر فيما بينها. فكما جعل نفسه سابقًا كالذئب، ثم إن الذئاب اجتمعت وتفرقت بسرور. وكما قارن نفسه بالقطا وهو يغدو إلى الماء، ثم إن القطا شربت بكل رغبة، فإن الوعول هنا أيضًا تجتمع فوق قمة الجبل، وهو مكانها الطبيعي، كما كانت المرقبة مكانًا طبيعيًّا لتجمع الذئاب، ومورد الماء مكانًا طبيعيًّا لتجمع القطا، مع ملاحظة أن تجمع الوعول كان مساء «الآصال،» وهو وقت تجمعها الطبيعي، ولكنها عندما يطلع النهار ستغادر هذا المكان وستفترق مرة ثانية. وبذلك

---

(٧٣) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤. ترود: تذهب وتجيء. الأواري: جمع أروية، وهي أنثى الوعل. الصحم: الحمر التي يميل لونها إلى الصفرة. المذيل: الطويل الذيل. بركن: يقفن. الأصيل: العشي. العصم: جمع أعصم، وهو الوعل الذي في موضع المعصم منه بياض. الأدفى: الذي يميل قرناه إلى ناحيتي ظهره من طولهما. ينتحي: يعتمد. الكيح: ناحية الجبل. أعقل: ممتنع في الجبل.

(٧٤) الرحيلي، *لامية العرب*، ص ٣٩.

(٧٥) الرحيلي، *لامية العرب*، ص ص ٣٩ ـ ٤٠.

يتأكد لنا أن لجوء الشنفرى إلى الأراوى لم يكن تعويضًا أو تكيفًا، وإنما اضطرارًا يعمق دلالات الحنين إلى العودة والانتماء، أي إنه إنما يرفض هذا الوضع المفروض عليه فرضًا.

إن معاناة الشنفرى ورفضه لحياة الصعلكة، ظاهرًا في كل أجواء شعره، فهو في اللامية التي كثر الحديث عنها يقول:

وَإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ عِيَادَ الحَمِيِّ الرِّبْعُ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ
إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَا تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحَيْتَ وَمِنْ عَلُ[٧٦]

فهذا الوصف القاسي المؤلم لحياته، وهو يحيا الصعلكة، لا يمكن أن يعني أنه متكيف معها، بل هو يعيش صراعا معها، وذلك مقابل المرحلة الأولى من حياته، أي مقابل النوم والهدوء والسلامة، وهذا بين بكل وضوح عندما نقارن قيام زوجه على إسعاده والاعتناء به في السابق، ومظهره الحالي، وهو وحيد شريد طريد حتى إن الدهن لم يمس شعره، فصار أشعث، يحيا القمل فيه:

وضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تُرَجَّلُ
بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ لَهُ عَبَسٌ عَافٍ مِنَّ الغِسْلِ مُحْوِلُ[٧٧]

مشهد الجوع

فالجوع هو أحد مؤكدات معاناة الصعاليك الخلعاء (الذين خلعتهم قبائلهم أي تبرأت منهم)، أولئك الذين لم يكن لديهم مفر سوى الخروج إلى الصحراء مضطرين إلى ذلك اضطرارًا، لأنهم وجدوا في الصحراء الأمن من الخوف الذي يلاحقهم جراء جرائم ارتكبوها. ويمثل الشنفرى هؤلاء الصعاليك الخلعاء أصدق تمثيل. ولا تخلو قصيدة من قصائد الصعاليك من الإشارة إلى الجوع على أنه ممثل لحالة السحق والعدم التي تصاحب الصعاليك في كل مرحلة من مراحل تصعلكهم. وما ترديد معاني الجوع والتمثيل لها، إلا صورة أخرى من صور القمع النفسي الذي يمارسه الصعاليك على ذواتهم نتيجة لعدم تمكنهم من العودة من جديد إلى المجتمع، إنها بمعنى آخر، عقاب ذاتي يوقعه الصعلوك على نفسه، ويوقعه المجتمع عليه.

(٧٦) العكبري، «شرح لامية،» ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٧٧) العكبري، «شرح لامية،» ص ٢٦١.

وفي وصف الشنفرى لجوعه صورة صادقة عن تلك المعاناة، وتأتي الألفاظ دقيقة في تأدية معانيها، يقول:

أُدِيمُ مِطَالَ الجُـوعِ حَتَّـى أُمِيتَـهُ وَأضْرِبُ عَنْـهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأرْضِ كَيْلاَ يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِـنَ الـطَّـوْلِ امْـرُؤٌ مُتَـطَـوِّلُ

ويقول:

وَأَطْـوِي عَلَى الخُمْصِ الحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطَـةُ مَارِيٍّ تُغَـارُ وَتُفْتَـلُ (٧٨)

فالحياة المعيشية لدى الصعاليك هي هذه الصورة بحذافيرها، جوع دائم يقاسي في التغلب عليه أشد المقاساة، حتى يصل به الأمر إلى أن يأكل التراب ليسد جوعه. وكل لفظة تحمل هذا التصوير واحدة فواحدة على النحو التالي: «أديم،» تعني أن الجوع ليس مؤقتًا، بل مستمر معه، حتى إن الفعل المضارع، يعني أنه عانى الجوع قبلاً، وما زال يصارع في التغلب عليه. «أميته»: أن هذا الجوع بلغ من القسوة والشدة والطول، بحيث أدت المعاناة إلى تحكم ذاتي في مشاعره، ولنا بعد أن نتصور مدى الأثر النفسي الذي يخلقه الجوع والمعاناة عنده. «أضرب عنه الذكر صفحا»: تعني اشتداد الجوع عليه، على الرغم من الرياضة الذهنية التي يمارسها في كل حال للتغلب عليه. أذهل: والذهول ليست حالة عابرة، إنها حالة نفسية تبين الحد الذي وصلت إليه قدراته الذهنية في التحكم في أحد الدوافع الرئيسة، وهو الدافع إلى الغذاء.

وعلى الرغم من ذلك، فإن حب البقاء يدفعه إلى التهام التراب، وبهذا تتم لنا صورة كاملة عن حياة مؤلمة موجعة، لم تحدد بزمن.

الخلاصـــة

وضح لدينا أن الشنفرى ليس منبوذًا، كما وصفه اليوسف، (٧٩) وإنما هو منبوذ مخلوع، إنه متمرد على سلطات المجتمع، ولذلك لجأ إلى القوة لحماية نفسه. ولهذا فليس صحيحًا

---

(٧٨) العكبري، «شرح لامية،» ص ص **٢٣٢ - ٢٣٣، ٢٣٥**. الخمص: الجوع. الحوايا: ما يحوي في البطن. الخيوطة: الخيوط. الماري: الفاتل. تغار وتفتل: تحكم.

(٧٩) اليوسف، *مقالات*، ص ٢١٧.

أيضًا أن الصعلوك قد وصل في محاولة التكيف مع حياة التوحش إلى درجة الارتواء العاطفي ، وهذا يمثل قمة التكيف مع الطبيعة المتوحشة وشخوصها .[٨٠]

وعلى ضوء ما تقدم من مناقشة لمدلولات الصعلكة ، وما تعكسه صورة الذئاب في شعره ، وإضافة إلى تلك المرحلة الأولى التي عاشها إلى جانب زوجه هانئا سعيدا ، فإن شعره في مرحلة الصعلكة لا يعكس إلا الرفض لهذه الحالة ، الرفض الذي لم يجد إلا الهروب نحو أجواء الصعلكة بمفهومها السلبي .

إن كل مفردة في معجمه في اللامية ، وهو يصارع الجوع ، فيلتهم التراب «أديم مطال» ويحمل سلاحه حافيًا مرة ومتعلا مرة أخرى ، «فإما تريني كابنة الرمل ضاحيا على رقة أحفى ولا أتنعل ،» ويتسلل إلى مخابىء الطعام هنا وهناك :

فَقَالُوا لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلاَبُنَا   فَقُلْنَا أذِئْبٌ عَسَّ أمْ عَسَّ فُرْعُلُ[٨١]

إنما يعكس تلك المقارنة بين ذلك الماضي الهانىء الرغيد ، وهذا الحاضر المجهد .

ووفق هذا المنظور ، فإن هذا الفهم للصعلكة ، يضعنا أمام تصور واضح ، وهو أن المخلوع قبليا ، الذي لم يجد من ينصره ، سلبيُّ الموقف متضعضعُ الذات ، غير قادر على الدخول في المجتمع والتكيف معه ، ولم يكن شعراء هذيل الصعاليك هكذا ، ولم يكن عروة بن الورد العبسي هكذا أيضًا .

---

(٨٠) الرحيلي ، لامية ، ص ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٨١) العكبري ، «شرح لامية ،» ص ٢٥٧ .

Al-Shanfara's Brigandism

Fadl Ammar Al-Ammary
Professor, Department of Arabic, Collge of Arts,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Many are the studies which deal with al-Shanfara and his relationship with the notion of brigandism. Such studies contain a number of opinions which present brigandism as a cultural and social behavior of which any scholar should be aware when discussing the social structure of pre-Islamic Arabia.

In this respect, al-Shanfara has become a symbol of the individual refusal of social and tribal conventions. Together with ᶜUrwa b. al-Ward and Taᶜabbata Sharran, he fits within a single perspective that goes beyond all the factors which have shaped the personality of each one of them.

However, it is our purpose in this paper to show that all these studies on brigandism have turned around one main thesis without attempting to analyze its foundations.